كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثالثة فنون درامية/ السداسي الخامس

مقياس: نقد مسرحي حديث ومعاصر

المحاضرة رقم 04 بعنوان:

في ضوء المناهج النقدية الحديثة في المسرح:

الاتجاه القروسطي و أبعاد نظرية توماس الأكويني في النقد الحديث

يعد القديس توماس الأكويني منظرا للفن في أواخر القرون الوسطى من خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر، مع تنامي القوى المنتجة في حركة التطور التاريخي لملكية وسائل الإنتاج وإرهاصات انتقالها البطء من اقتصاد الفئة إلى عصر النهضة، لذا ارتكز قياسه للمنتج الأدبي والفني على أبعاد مختلفة منها ما هو تاريخي، ومنها ما هو اجتماعي، ومن ثم ما هو ذاتي أو نفسي.

مع ظهور اتجاه نقدي محمولا على نظرية نقدية قروسطية متفردة تنسب للقديس توماس الأكويني، ترتكز على تأسيس حكم الناقد على ركائز لتقويم العمل الأدبي، وتقوم على عدة أبعاد يراعيها الناقد تتمثل في (البعد التاريخي والبعد الاجتماعي والبعد الذاتي أو النفسي) وهذه الأبعاد لها فاعلية توظيفها في ضمن تطور

حقب النقد المسرحي الحديث، والتي توزعت فيه أبعاد نظرية توماس الأكويني في عدد من النظريات كالنقد نفسي ونقد الاجتماعي ونقد التاريخي ونقد جمالي ونقد موضوع، كما لا تزال مقوّما نقديا للإبداع.

إن فلسفة توماس الأكويني فلسفة غير مرتبطة بفلسفة العصور الوسطى، بمعنى سيطرة الحياة الروحية واللاهوتية، بل تبدو فلسفة حديثة من حيث تركيزها على الواقع.

يعد القديس توماس الأكويني من أشهر فلاسفة المسيحية في العصر الوسيط، وقد ميز بين ميدان العقل وميدان الإيمان ورأى أن العقل وظيفته أن يهيئ للناس النظر ويقودهم إلى الإيمان، وهكذا أثبت أنهما متميزان موضعا ومنهجا، أداة الفلسفة هي العقل، وأداة الدين هي الوحي، فقد وفق الأكويني بين المعتقدات المسيحية والنظم العلمية والفلسفية التي سادت في عصره وأخصها فلسفة أرسطو بصفة عامة، وهي الفكرة القائلة بأن العقل والإيمان وجهان متساويان للمسيرة الروحية ذاتها (أي إن العقل جدير بأن يوضع في منزلة الإيمان)، فقد آمن الأكويني بأن الوجود الإلهي يمكن إدراكه من خلال الطبيعة والفكر وحدهما، لكن الخلاص لا يمكن تحديده إلا بالوحي.

أظهر ما يبدو للناظر في فلاسفة القرن الثامن عشر اشتراكهم في التحليل والنقد، تحليل المعرفة ونقد العقل والدين والنظم الاجتماعية والسياسية، فأما نقد العقل فيستند إلى المذهب التصوري من جهة، وإلى المذهب الحسي من جهة أخرى، فمبدأ المذهب التصوري يهدف إلى إدراك الشخص لفكره، ليبقى كل ما عدا الأفكار موضع بحث، كما كان عند ديكارت والذين جاءوا بعده، ومبدأ المذهب الحسي أن لا قيمة للمعاني المجردة، وكان نيوتن قد عرض علما خالصا من الميتافيزيقا، فأعجب به الكثيرون واتخذوا منه ومن الحسية دعامتين أقاموا عليهما المادية، وصنعوا بديكارت مثلما صنع هو بأرسطو فبددوا آراءه الفلسفية والعلمية جميعا، وأمد نقد الدين فيصدر عن المواقف السابقة، وقد كثرت الكتب التي تبحث في الدين الطبيعي خلال القرن الثامن عشر، وأما نقد النظم الاجتماعية والسياسية فتابع للمواقف السابقة كذلك وللنزوع العام إلى الحرية.

وبالتالي، دُون نقد الدين كما فعل فيورباخ أو نقد الفكر كما فعل باور أو نقد الأنا كما فعل شترنر، وكأن النقد الاجتماعي عند ماركس وأنجلز ما هو إلى حصيلة مجهود طويل في نقد الأسس النظرية للبناء الاجتماعي في الدين والفكر والشعور.

يرى توماس الأكويني وهو تلميذ ألبرت الكبير في جامعة باريس، أن في الإمكان إثبات وجود الله، مما لا يمكن إثباته هو تفضيلات العقيدة الأخرى مثل الخلق والتجسد وصفات الله وغيره، فإنها أمور لا يمكن استنباطها بالمنطق أو إثباتها بالعلم، وإنما تقبل بالإيمان، وأن وجود الله وجوهره واحد، ومن هنا إمكانية إثبات الوجود لأنه هو والجوهر واحد في حالة الله، وهو الأمر المنتشر والمعروف الذي منه تشتق أغلبية إثباتات وجود الله، ولا سيما أن الوجود والجوهر يعودان إلى أصل واحد في اللاتينية هو Esse، مثلما أن الكيان والكينونة والكون مصدرها واحد في اللغة العربية.

وعليه تبنى توماس الأكويني عمليا القانون الطبيعي في هذا الوقت المبكر، وفهم أن من دون القانون الطبيعي سيكون تحديد العدالة ممكنا بواسطة القوانين الوضعية فحسب، وهذه متغيرة، ومن هنا أخذ بالفكرة الأرسطية المتعلقة بالعدالة الطبيعية المتصلة بأمور لا تتغير، وعلى أساسها نقيس العدالة بموجب معايير ثابتة في الحوادث والظروف المتغيرة. لتتسم فلسفة الأكويني الواقعية بالانتقائية، فقد أسس نظاما فلسفيا خاصا متأثرا بالأرسطية والرواقية، إضافة إلى المسيحية والأفلاطونية المحدثة والأوغستينية، لكن فلسفته العقلية تميزت باجتهاداته الخاصة بين عدد من التفسيرات والتأويلات، فقد حملت طابع العبقرية اللاتينية والإيطالية الميالة إلى الاجتهاد العقائدي، وتمثل ذلك بوضوح في موقفه من مشكلة الكليات universals، واتخذ حيالها موقفا مخالفا لأفلاطون.

إن الفكر النقدي المسرحي الحديث كان مستنبطا من أفكار توماس الأكويني، الذي يقسم العلوم الفلسفية إلى نظرية وعملية، تشمل الأولى العلوم الطبيعية والرياضية والميتافيزيقة، التي تضم الأبستمولوجيا والميتافيزيقا العامة واللاهوت الطبيعي، وتحوي الثانية الفلسفة الأخلاقية والاقتصاد

والسياسة، ويتخلل المنطق كل العلوم الفلسفية. ويتمسك الأكويني بمنطق أرسطو، فيبدأ بالاستقراء، ثم يتقدم على نهج استنباطي بعدي كشفي (عن طريق الاختراع)، أو استنباطي قبلي تقويمي (عن طريق الحكم). وتتضمن فلسفته الطبيعية جميع العلوم التي تدرس الموجود المتغير: الطبيعة، الكون، علوم المعادن والنبات والحيوان والنفس، الخ.

بينما يتخذ العلم الميتافيزيقي عند الأكويني طابعا أرسطيا مسيحيا، وموضوعه علم الموجود، وهو أول ما يدركه العقل. ويدرس هذا العلم الجواهر وفق أنماط الوجود المختلفة في نظامها التسلسلي، ابتداء من الله المبدأ الأول للوجود، مرورا بالجواهر اللامادية المفارقة للحس، الملائكة، وانتهاء بالجواهر الحسية التي تتركب من مادة وصورة. وبقبول الأكويني تماما الأنطولوجية الأرسطية للجوهر، فهو يؤكد أن الصورة جوهر يحدد هوية الفرد، والمادة مبدأ التفرد أو التشخص.

إن عمل القديس توماس الأكويني الذي كتبه باللغة اللاتينية تحت عنوان Summa theologica (الخلاصة اللاهوتية) مثال على نظرة العصور الوسطى للكون والإنسان والحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها وتداخلها، ليعد إنجازا عقليا من الطراز الأول يعكس فكرا لنظر إلى الكون باعتباره وحدة واحدة لا انفصام بين أجزائها، ولم تكن الكوميديا الإلهية Divina comedia إلا تصويرا أدبيا رمزيا لهذه النظرة الدينية-الفلسفية التي شملت اللاهوت والفلسفة والأدب والعلوم وكل أنواع النشاط الفكري الإنساني.

وبين تداخل أمور الدين والدنيا، ووحدة الكون وتناغم عناصره وتوافقها، فإن كل شيء فيه لا يدل على ذاته فحسب، ولكن يدل أيضا على غيره، ومن هنا جاءت فكرة الأبعاد الرمزية للأشياء الكامنة وراء ما هو ظاهر.

_ **البعد التاريخي:** أعطى القديس توماس الأكويني للعقل دورا كبيرا في تكوين المعرفة اللاهوتية، ويرى أن العقل يستطيع الإلمام والوصول إلى الحقيقة وتكوين معرفة، لكنه يبقى محدودا ولا يستطيع تجاوز قدراته.

إن العقل من خلال الإشراق الإلهي من خلال احتكاكه بالعلم ومعارفه المكتسبة، وذلك من خلال التجارب يستطيع أن يعقل ويدرك كل ما هو خير، لأن الطبيعة الإنسانية تسعى إلى الخير الكلي. وأن الله يهب إرادة القدرة على التحرك بحرية، كما يهب العقل القدرة على الإدراك بجهده الحر الخاص فيكون الإنسان مسؤولا لأنه مخير وليس مسير.

نظر توماس الأكويني إلى اللاهوت، أو العقيدة المقدسة كعلم، والعمل على ربط علاقة بين الإيمان والعقل، على الرغم من اختلافهما ولكنهما مرتبطان، هما الأداتان الأساسيتان لمعالجة بيانات اللاهوت. كما يعتقد الأكويني أن كلاهما ضروري، فمزج الفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية من خلال اقتراح أن التفكير العقلاني ودراسة الطبيعة، مثل الوحي، كانت طرق صحيحة لفهم الحقائق المتعلقة بالله.

_ **البعد الاجتماعي:** أصبحت نظرية توماس الأكويني عن النظام السياسي شديدة التأثير، إذ يرى الإنسان ككائن اجتماعي يعيش في مجتمع ويتفاعل مع أعضائه الآخرين، وهذا يؤدي من بين أمور أخرى إلى تقسيم العمل. كما يعتقد الأكويني أن الملكية هي أفضل شكل من أشكال الحكومة، لأنه لا يتعين على الملك تقديم تنازلات مع أشخاص آخرين. علاوة على ذلك، ووفقا لتوماس الأكويني فإن الأوليغارشية تتدهور بسهولة إلى الاستبداد أكثر من الملكية، لمنع الملك من أن يصبح طاغية، يجب كبح سلطاته السياسية ما لم يتم التوصل إلى اتفاق بين جميع الأشخاص المعنيين، فيجب التسامح مع الطاغية، وإلا فقد يتدهور الوضع السياسي إلى حالة من الفوضى، والتي ستكون أسوأ من الاستبداد.

فباتباع مفهوم العبودية لأرسطو، يبرر الأكويني هذه المؤسسة على أساس القانون الطبيعي .ومع ذلك، ميز أيضا بين "العبودية الطبيعية"، والتي تفيد كل من السيد والعبد، و "العبودية المستعبدة"، التي تزيل كل استقلالية عن العبد وهي، وفقا لتوماس الأكويني أسوأ من الموت .

_ **البعد النفسي:** عرف توماس الأكويني النفس على أنها كمال للجسم العضوي، أو هي قائمة بذاتها، وأما أن النفس كمال للجسم العضوي فهو يعني أمخا صورة الجسم وتؤلف معه وحدة، أما التعريف الثاني وهو أنها قائمة بذاتها، فيستخدمه توماس الأكويني فقط عندما يريد البرهنة على خلود النفس.

يقول توماس الأكويني: 'فإذا النفس التي هي مبدأ الحياة الأول ليست جسما بل فعلا للجسم كما أن الحرارة التي هي مبدأ التسخين ليست جسما بل فعلا للجسم'. كما يوضح توماس الأكويني في كتابه " الخلاصة اللاهوتية "موقفه من طبيعة الروح. تعريفه بأنه أول مبدأ للحياة، فالروح ليست جسدية ولا جسدية. إنه فعل الجسد. لأن العقل غير مادي، فهو لا يستخدم أعضاء الجسد، لأن عمل أي شيء يتبع طريقة وجوده'.

يرى الأكويني" أن وجود الحياة في الكائنات الحية هو الدليل الأول على أن كلا منها يتجلى بنفس مبدأ الحياة، وهذا ليس جسما وإلا صارت كل الأجسام حية هذا المبدأ متميز إذا عن الجسم، وهو موجود في الإنسان كما في الحيوان والنبات، لكن النفس الإنسانية متمايزة في أنها ذات إدراك عقلي مجرد غبر جسمي أي ليس آلة جسمية، فلو كان آلة جسمية لمنعه تركيبه المادي من إدراك الماهيات المجردة، فالإدراك العقلي مختلف في طبيعته عن القدرات الجسدية، فإذا كانت قدرات الحس والنمو ملازمة للجسد فإن القدرة العقلية الخاصة بالإنسان وحده، هي روحية مجردة تدعى النفس، فالإدراك العقلي بطبيعته مختلف وهو خاصية إنسانية عكس القدرات الجسمية المرتبطة بنمو الجسم.

المكتبة البيبليوغر افية:

- توما الأكويني: الخلاصة اللاهوتية، ترجمة بولس عواد.
- عيد الدحيات، النظرية النقدية الغربية: من أفلاطون إلى بوكاشيو.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط.
- عاطف العراقي، ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة.
- دومينيك فولشيد، المذاهب الفلسفية الكبرى.